

الاضطراب المصطلحي.

دراسة لمصطلح (التناس) في كتابات عبد الملك مرتاض النقدية.

عبد الرشيد هميسي

جامعة حمّـه لخضر. الوادي

المصطلحات مفاتيح العلوم، ولا سبيل لقيام علم إلا بإنشاء منظومة خاصة به، تكون صميمه وبنيته المعرفية، وتحمل خصائصه التكوينية. ومتى ضُبطت هذه المنظومة الاصطلاحية أكثر، تماسكت أواصر هذا العلم أكثر، وكان أدأؤه أكثر فعالية، ومنهجه أكثر وضوحاً ودقة، وضمّن هذا الأخير سلامة منهجه وأدواته حين إنتقالها إلى بيئة معرفية مغيرة لبيئته الأم، والعكس بالعكس. ولضبط هذه المنظومة الاصطلاحية توجب على ضابطها عدّة معرفية وإحاطة لغوية، وبقظة اجتماعية، وفهما حضارياً. كل هذه الأشياء الأربعة مهمّة جداً في صناعة المصطلح وأي خلل أو أي نقص في استيعابها ينجّر عنه تذبذب واضطراب في المصطلح. ولعل الباحث في حقل النقد الأدبي يلاحظ اضطراباً واضحاً في المصطلح النقدي إن ترجمةً، وإن إنشاءً، وإن إحياءً، ومَرَدُّ ذلك إلى عدة أسباب مختلفة، وفي هذا المقال نذكر الأسباب التي تخصّ الترجمة فقط.

1/ الترجمة والاضطراب المصطلحي:

الترجمة آلية مهمة جداً في إرساء المناهج النقدية الغربية المعاصرة في الثقافة العربية، وأكاد أجزم أن لها الصدارة من بين الآليات الأخرى كالنحت والتوليد والإحياء والتركيب... لهذا الأمر وجب الاعتناء بها عناية خاصة، وحظرها على الدارسين إلا المتخصصين منهم أو الذين أثبتوا براعة ومهارة فيها، ولا أذهب بعيداً إن قلت بوجود سِنِّ قوانين خاصة تضبطها وتحّد من العبث بها، لأن كل خلل في الترجمة ينجم عنه اضطراب في المصطلح ومن ثمّ ضعف في المنهج. ومن الأخطاء التي يقع فيها المترجمون نذكر:

- 1 عدم اتفاق المختصين حول السّابقة الواحدة أو اللاحقة الواحدة لتباين الثقافة والمنطق واللغة، أو لضغوط غير لسانية.
- 2 تباين مستويات التلقي والتأصيل، والقصد من ذلك تفاوت المدارك من باحث إلى آخر ومن بلدٍ إلى آخر بسبب اللغة والتكوين.¹
- 3 غياب المرجعية؛ أي إقدام المترجم على ترجمة النص النقدي في غياب مرجعيته، أي عدم الإلمام بالسّياق التاريخي وبالأسس النظرية للنص المترجم، مع العلم أن كل ما يعبر عنه النقد من أفكار ونظريات واتجاهات هو حلقة من حلقات السّياق الثقافي والاجتماعي للغة المصدر.²
- 4 الكثير من المصطلحات النقدية التي تُرجمت إلى النقد العربي جاءت جاهزة قبل أن تنشأ الأعمال الأدبية التي تنطبق عليها.³
- 5 محاولة التعامل الحرفي مع اللغات الأخرى دون الأخذ في الحسبان الشحنة الدلالية والمرجعية التي تميزها عن تلك.
- 6 التسرع في وضع بعض المصطلحات ما يفسر التراجع عنها لعدم موافقتها دلالة المصطلح الأجنبي أو لعدم شموليتها، أو لأسباب أخرى كعدم قابليتها للنحت أو الاشتقاق.⁴
- 7 ترجمة النظريات النقدية خاصة الحداثيّة وما بعد الحداثيّة تمثل أعلى درجات التحدي لقدرات المترجم لغوياً وذهنياً، فالمترجم يجد نفسه يتعامل مع مصطلحات لغوية مفردة أو مركبة لم يحدث الاتفاق على دلالتها بين أبناء الثقافة الواحدة، وأحياناً بين أبناء الثقافة التي أفرزتها.
- 8 ارتباط المدارس النقدية الحداثيّة بالفلسفة الأوروبية الحديثة خاصة الظاهريّة والهرمينوطيقية، هذا الذي يجعل إدراك المعنى صعباً حتى على قارئ من ذات الثقافة نفسها.
- 9 العنصر الحداثي وما بعد الحداثي القائم على تعمّد الغموض والإيهام لتأكيد إبداعية النص النقدي وأهميته.⁵

¹ السعيد بوطاحين- الترجمة والمصطلح- منشورات الاختلاف -الجزائر العاصمة - الجزائر - ط1 2009. ص 28.

² حفناوي بعلي "إشكالية ترجمة المصطلح النقدي- مصطلح الشعرية في الخطاب العربي" مجلة النص والناص. ع4،5، أبريل جويلية 2005 ص 56.

³ ميلود عبيد منقور- " إشكالية المصطلح النقدي " مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ع 104 كانون الأول 2006 ص 03.

⁴ السعيد بوطاحين - الترجمة والمصطلح ص 28.

⁵ عبد العزيز حمودة - المرايا المقعرة - عالم المعرفة - مطابع الوطن ت الكويت - أغسطس 2001 ص 117.

10 اضطراب المصطلح في لغته الأم ، وعدم انضباطه ينعكس ذلك على اللغة المستقبلية .
11 صراع الاتجاه التراثي مع الاتجاه الحديث في صياغة المصطلح ؛ فالاتجاه التراثي يفضل إحياء القديم أما الحديث فيفضل الترجمة والتعريب.
هذه الأسباب مجتمعة وغيرها جعلت من المصطلح النقدي عرضة للاضطراب والتذبذب

2/ مصطلح التناص عند النقاد العرب:

تكمّن أهمية مصطلح/نظرية التناص في كونه أخرج النص الأدبي من سجنه المغلق الذي فرضته عليه البنيوية ، وأتاح هذا الأخير لمناهج جديدة أن تظهر للوجود وهي مناهج ما بعد البنيوية. التي تعترف – بطرق مختلفة – أن للنصّ علائق خارج حدوده، أيّاً كانت تلك العلائق (لغوية – فكرية – إجتماعية....). الأمر الذي جرّولان بارت إلى القول أن التناصية قدر كلّ نصّ مهما كان جنسه. وردّد هذه المقولة النقاد العرب فمحمد مفتاح يقول أن التناص للكاتب "بمثابة الهواء والماء والزمان والمكان للإنسان فلا حياة له بدونهما ولا عيشة له خارجهما"⁶، وقالها عبد الملك مرتاض بطريقة أخرى حين أقرّ أن التناص للنص الإبداعي كالأكسجين الذي لا يُشَمّ ولا يُرى ولكن لا أحد يُنكره.⁷

وقبل أن نتعرض لهذا المصطلح عند العرب، نقدم موجزاً عن نشوءه عند الغرب. فهذا المصطلح نشأ مع باختين بمصطلح (الحوارية)(Dialogisme) أو (التعدد الصوتي)، أو (البوليفونية)(polyphonique) ثم مع جوليا كريستينا بمصطلح (التصحيفية)(paragrammatisme) و (الإيديولوجيم)(Idéologéme). وبعد ذلك جاء مصطلح (التناص)(Intertextualité). وجاء من بعدهم (دومينيك مينغينو) وفرّق بين المصطلحين: التناص (Interexte) والتناصية (Intertextualité)، فالتناص مجموع المقاطع المذكورة ضمن متن معطى ، أما التناصية فهي نظام القواعد الضمنية التي تضم ذلك التناص.⁸
أما عند النقاد العرب فقد لقيا هذين المصطلحين ترجمات عدّة تنم عن اضطراب واضح، وذاتية بادية في الترجمة ووضع المصطلحات. وقد جمع الدكتور يوسف وجليسي في كتابه (إشكالية المصطلح) هذه الترجمات على النحو التالي:⁹
(Intertexte, Intertextualité) (التناص ، التناصية) (المتناص ، التناص) (التناص ، التناص) (نص متداخل ، تداخل النصوص).

وبعض النقاد لم يذكروا مقابلاً للمصطلح الأول بل اكتفوا بترجمة المصطلح الثاني Intertextualité ب: التضمين ، التضمين النصي ، بين نص ، التناصية ، تفاعل النصوص ، تناسخ النصوص ، التناسخ النصي ، بينصووية.
وهذه المصطلحات هي لأكبر النقاد المعاصرين وصنّاع المعاجم كعبد السلام المسدي والغدامي وعبد الملك مرتاض ، وجابر عصفور وغيرهم

ونلاحظ مع الدكتور وجليسي أن بعض المصطلحات التي ذكرت مرفوضة إما لأسباب دلالية وإما لأسباب مرفولوجية . فمصطلح (بين نص) ثقيل وعصي على اللسان ، وأما (التناصية) ففيه خطأ لغوي والأصح منه التناصية. أما مصطلح التضمين فمستبعد لانحصاره الدلالي على البلاغة العربية . و (التضمين النصي) مصطلح ناقص يختص فقط بالنص ، ولكن التناص يستوعب النص وغيره. وأيضاً أن نفرق بين مصطلحين ب (ال) التعريف ، فلا مسوغ لذلك مثل : تناص ، التناص. وكل هذه المطبات عائدة إلى الإشكالات التي ذكرناها في بداية المقال .

3/ مصطلح التناص عند مرتاض :

قبل أن نعرض للتحويلات التي شهدتها هذا المصطلح عند الناقد مرتاض لابدّ أن نذكر سبب اختيارنا لمرتاض دون غيره . والسبب هو أن مرتاضاً يعدّ من كوكبة النقاد المعاصرين الذين يُشَهد لهم بالتضلّع في حقل النقد ، ولكونه أيضاً كان سبّاقاً في تجريب مناهج نقدية

⁶ محمد مفتاح -تحليل الخطاب الشعري، المركز الثقافي العربي. بيروت- الدار البيضاء ط3 1992 ص125

⁷ ينظر: عبد الملك مرتاض -تحليل الخطاب السردي، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1995 ص278

⁸ دومينيك مونغانو – المصطلحات المفاتيح في تحليل الخطاب. ص52

⁹ يوسف وجليسي – إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد – منشورات الاختلاف- الجزائر ط1: 2008 ص: 401,402,403 .

عديدة ، وتسليطها على نصوص عربية ، والخروج بنتائج مرضية وجادة. ولكن المصطلح عنده اضطرب وتذبذب ، ولو حصل هذا التذبذب مع ناقد مبتدئ لكان الأمر ، ولكنه حصل مع ناقد حذق.

إن مرتاضا يقرّ أن هذا المفهوم موجود وحاضر بقوة في النقد العربي القديم ولكنه اشتهر بمصطلح (السرققات الشعرية) وفحوى هذا الأخير هو الاقتباس الخفي أو الظاهر للألفاظ أو الجمل من سياق وإعادة صياغتها في سياق آخر.¹⁰ ولكنه معّ هذا المصطلح وكره استعماله ، لأنه يحمل في ثناياه إهانة وإدانة للشعراء بالسرقة. ولكنه يقع في نفس الخطأ الذي كان قد استثنى في مصطلح السرققات الشعرية ، فهو يصف الكاتب حين يتناص مع كاتب آخر بـ(ناهب) : "فمن الكتاب يزعم أن ما يكتبه لم يخطر بخلد أحد قبله ولا فكّر فيه ولا التفت إليه... إنّ كل كاتب ناهب من حيث لا يشعر ولا يريد".¹¹

أمّا المصطلح التراثي الثاني (الاقتباس) فمفضل ، فقد فضّل عليه مرتاض مصطلح التناص الذي قال بأنه أدق.¹² أمّا مصطلح التناص عند الغربيين فإن مرتاضا يراه قد ابتدأ مع (جان جيروودو) بمصطلح السرققات الأدبية (le vol littéraire).¹³ لكن الفضل . حسب مرتاض . يعود إلى باختين الذي أعطى للمصطلح أبعاده ، وقوليه في شكل نظرية ، لكن مصطلح التناص لم يظهر معه ، بل استعمل (البُنى الحوارية للنص) (كرنفالية النص) (تعددية أصوات اللغة)¹⁴ ، ثم الفضل الأخير يعود إلى جوليا كرسيفا وجهودها في التقييد لهذه النظرية .

ومن التعريفات التي اقترحها الدكتور مرتاض للتناص التالي:

" هو استبدال نصوص سابقة بنص حاضر دون قصد"¹⁵

" هو الوقوع في حال تجعل المبدع يقتبس أو يضمن ألفاظا وأفكارا كان التهمها في وقت سابق ما دون وعي صراح بهذا الأخذ الواقع عليه من مجاهل ذاكرته وخفايا وعيه فمفهوم التناص يعني ضرورة الإقرار بنسبية الإبداع".¹⁶

وتأمّل هذين التعريفين يهدي إلى أن التناص هو حدوث تداخل وتناسخ بين نصين دون قصد وبكامل العفوية. وهذا مبين لمصطلح السرققات الذي يُدين الشعراء لأنهم قصدوا الأخذ ، وهذا هو وجه الفرق بين المصطلحين ، ولكن مرتاضا يناقض نفسه حين يصرّح قائلا : " المسألة في رأينا مسألة مصطلح لا مسألة الفكرة في حدّ ذاتها ، فهي قد وردت في النقد العربي القديم".¹⁷ ويؤكد هذا التصريح في موضع آخر: "غير أن التناص المعاصر يحاول في حذقة مائية بادية أن يزعم للناس أنه غير السرقة الأدبية على الرغم من أنه في حقيقته ليس إلّاها ... وكل ما في الأمر أن النقاد الأقدمين كانوا ربما دانوا السرقة الأدبية وهو من شأن الأديب الذي يعول عليها تعويلا مفضوحا".¹⁸

لم يركح مرتاض على مصطلح التناص بل ذهب يبحث له عن بديل آخر أكثر دقة ، فاقترح مصطلح (التكاتب) ، وبرّر تفضيله لهذا المصطلح عن مصطلح التناص بأن التناص عام يشمل اللغة والأسلوب والأفكار ، أما التكاتب فإنه يخص تأثير الكاتب بكتابات أخرى بصرف النظر عن جنس هذه الكتابة.¹⁹

ولا يخفى على القارئ قصور هذا المصطلح أن يشمل النص بكل أبعاده وحدوده ، فالمكتوب يشكل جزءاً من تمثالات النص، فقد يكون النص مسموعاً ومنظوراً أيضاً.

كما اضطرب مرتاض في ترجمة مصطلح Intertextualité فهو يترجمه مرة بالتناص ومرة بالتناصية أو بهما معا في نصّ واحد ، فهو القائل " ولقد سبق لنا في كتاباتنا الأخيرة أن تناولنا الحديث عن التناص أو التناصية على أصح ما ينبغي أن يقابل المفهوم الغربي

¹⁰ ينظر : عبد الملك مرتاض - نظرية النص الأدبي - ص 199.

¹¹ عبد الملك مرتاض - تحليل الخطاب السردي - ص 287.

¹² ينظر المرجع نفسه ص 279.

¹³ عبد الملك مرتاض - نظرية النص الأدبي ص 192.

¹⁴ المرجع نفسه ص 276

¹⁵ المرجع نفسه ص 199.

¹⁶ المرجع نفسه ص ن.

¹⁷ المرجع نفسه ص 258.

¹⁸ المرجع نفسه ص 264.

¹⁹ ينظر عبد الملك مرتاض " بين التناص والتكاتب" مجلة قوافل - النادي الأدبي بالرياض - السعودية مجلد 04 ع 07

1997. ص 195,198.

Intertextualité إمّا تنظيراً أو تطبيقاً²⁰، وفي موضع آخر يقول: "والمسألة برمتها أي ما يتمخض للنص والمنتصص معا يطلق عليها ، كما نأتي ذلك فعلا في النقد المعاصر (التنصص) فإذا انزلقنا إلى البحث عن الماهية والمفهوم والعلاقات أي في صميم النظرية فذلك هو التنصصية Intertextualité"²¹. والمثير للغربة أن هذين النصين في كتاب واحد □

أما المصطلح الأخير الذي رشحه مرتاض لأن يكون بديلا عن التنصص هو مصطلح المقارنة ، حيث قال أن " القراءة سلوك حضاري فكري ذهني روحي جمالي ثقافي هي عادة متحضرة هي دأب متأصل هي ثقافة داعية ، هي ما يمكن أن نطلق عليه في لغتنا الخاصة (مقارنة) أوهي كما يعبر عنه بعض الغربيين (تنصص)"²².

والمقارنة في رأينا مصطلح ناقص لا يشمل مفهوم Intertexté ، لأن المقارنة تقتضي تداخل ومشاركة مقروء الكاتب مع مكتوبه ، وفي الحقيقة ليست القراءة فقط هي التي تتداخل مع نص الكاتب ، فالمسموع والمنظور كذلك هي جزء من ثقافة الكاتب التي يمكن أن تتنصص مع نصوصه وتظهر بشكل أو بآخر. لهذا كله فإن مصطلح المقارنة جزء من كل.

وأخيرا بعد أن لاحظنا الاضطراب المصطلحي الواضح لدى مرتاض بين المصطلح التراثي والمصطلح الحديث ، وعدم ثبوته على مصطلح حديث واحد. ومجانبته للدقة في ترجمة المصطلح ، وفي رأينا ذلك عائد إلى عدة أسباب من بينها التوق إلى الانتصار للمصطلح التراثي أحيانا ، وإحياءه ليواكب المستجدات النقدية ، وأيضا التسرع والمسارة في تلقف المصطلح الغربي وترجمته للعربية للاستهلاك والتداول ، ومواكبة الحركة النقدية. وكذلك تدخل الذاتية الواضحة في ترجمة المصطلح ، وليس أدل على ذلك استبدال مرتاض مصطلح التنصص مرة بالتكاتب ، ومرة بالمقارنة ، ولو أوكل المصطلح للمجامع اللغوية لمحصته وقبّيته على وجوهه حتى ينضج فتدفعه في للساحة النقدية ليُستهلك.

إن هذا الاضطراب المصطلحي سبب مباشر في بلبلة المنهج النقدي وهزأركانه إذ لا ثبوت للمنهج دون ترسانة مصطلحية متينة . ولا نتائج مرضية وجيدة دون ضبط قبلي للمصطلحات المستعملة .

المراجع :

الكتب :

- 1/ السعيد بوطاحين- الترجمة والمصطلح- منشورات الاختلاف -الجزائر العاصمة - الجزائر - ط1 2009.
- 2/ عبد العزيز حمودة . المرايا المقعرة . عالم المعرفة . مطابع الوطن ت الكويت . أغسطس 2001.
- 3/ محمد مفتاح -تحليل الخطاب الشعري، المركز الثقافي العربي. بيروت- الدار البيضاء ط3 1992 .
- 4/ دومينيك مونغانو - المصطلحات المفاتيح في تحليل الخطاب. ترمحمد يحياتن ، منشورات الاختلاف ، الجزائر 2005.
- 5/ يوسف وغليسي - إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد - منشورات الاختلاف- الجزائر ط1: 2008 .
- 6/ عبد الملك مرتاض . نظرية النص الأدبي . دار هومة . الجزائر 2007.
- 7/ عبد الملك مرتاض . تحليل الخطاب السردى (معالجة تفكيكية مركبة لرواية زقاق المدق) . ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر 1995.
- 8/ عبد الملك مرتاض . السبع المعلقات (مقاربة سيميائية أنثروبولوجية لنصوصها) منشورات اتحاد الكتاب العرب (مرقون) 1998.
- 9/ عبد الملك مرتاض . في نظرية النقد (متابعة لأهم المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها) . دار هومة الجزائر 2002.

المقالات :

- 1/ حفناوي بعلي "إشكالية ترجمة المصطلح النقدي- مصطلح الشعرية في الخطاب العربي" مجلة النص والنص. ع4، 5 أبريل جويلية 2005.
- 2/ ميلود عبيد منقور. "إشكالية المصطلح النقدي " مجلة التراث العربي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ع 104 كانون الأول 2006.
- 3/ عبد الملك مرتاض " بين التنصص والتكاتب" مجلة قوافل . النادي الأدبي بالرياض . السعودية مجلد 04 ع 07 1997.

²⁰ عبد الملك مرتاض - السبع المعلقات (مقاربة سيميائية أنثروبولوجية لنصوصها) منشورات اتحاد الكتاب العرب (مرقون) 1998-ص182.

²¹ المرجع نفسه ص 216.

²² عبد الملك مرتاض - في نظرية النقد ص 101

